الباب الخامس

خيانة الخديو

(واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ولو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله لك..).

حديث شريف

لو وقف التاريخ عند نفي الأستاذ الإمام مرة أخرى في شبابه لسلكه بين أتراب له من زعماء الثورة الفرنسية قضوا نحبهم في زهرة العمر.. ولو وقف عند إرسائه دعائم الدولة والأمة لسلكه بين لدات من "الآباء المؤسسين" في الثورة الأمريكية، أو عند إصلاح الأزهر، لخصه بأنه (المعطي دم الشباب) للجامع الهرم. أو عند الاهتمام الخاص والعام باللغة وعلومها لسجل له أنصع الصفحات لاهتمامه بالإسلام ولسان القرآن. أو عند إصلاح القضاء الشرعي، لخلده خلود القيم التي تقوم عليها الأسرة وهي نواة الأمة. أو عند تفسيره للقرآن، لخلده خلود المعاني التي لفت إليها أنظار عصره وكل عصر بعده.

لكن حياة الإمام إمام. تهدي بالفعل والقول وبمجرد الوجود على الأرض، مركز ثقل يحفظ للدنيا توازنها.

الزعيم في البرلمان:

في ٢٥/ ٦/ ١٨٩٩ عين الإمام عضوا في مجلس الشورى وكانت الحكومة ناشزة عليه، فردها الإمام إليه بحكمته، وظفرت الحياة البرلمانية في مصر بسنوات خمس، حدثنا عنها زميلاه في المجلس وفي الجمعية الخيرية.

قال حسن عاصم ليبين موقعه من الدولة والأمة والحكومة: (كان بين أهل الحل والعقد في الحكومة وبين مجلس الشورى شيء أشبه بالخلاف في الرأي أدى إلى أن الحكومة نفذت

كثيرا من المشروعات التي كان المجلس يرى الخير للأمة في عدم العمل بها. وصرفت النظر عن كل أوجه التعديل التي كان المجلس يرى أن الصلاح والنفع للأمة في تعديلها.

فلما جاء الأستاذ إلى المجلس ونظر في الأمر نظرة الحكيم البصير، وعرف أنه ليس هناك ما يدعو إلى هذا الانفراج، وإنما هو سوء التفاهم باعد بين المشارب على تقاربها، سعى رحمه الله في أن يزيل أسباب هذا الخلاف وكان ما أراد. وعرفت الحكومة أن المجلس إنما يطلب ما فيه سعادة الأمة ويبتغي الخير لها. وأن ليس لها غرض في مصادمة آراء الحكومة ومطالبها مادامت تتفق مع مقصده. وعلم المجلس أيضا أن الحكومة لا تقصد إلى شيء وراء ما يقصده لمصلحة البلاد، وبذلك اتفقت الكلمة في الغالب. ولم يعد بين الهيئة الحاكمة والهيئة النيابية من الخلاف ما يعسر حله).

لقد كان عند قيام الثورة يخشى على الأمة عجزها عن الانتفاع بالحكم النيابي، ولما صار واحدا من نوابها واتته الفرصة لإثبات قدرتها، وألقى الجميع إليه مقاليد القيادة.. قال حسن عبد الرازق ليبين مقامه في الزعامة وكيف وضع "المشترع العظيم" تقريره العظيم لإصلاح القضاء الشرعي موضع التنفيذ، وكأنما كان يسابق الزمن:

كان (واسطة العقد في مجلس الشورى والتفت حوله القلوب وعرف الكل مكانته وكان إخوانه في مجلس الشورى يلجئون إليه إذا اشتبه الأمر وخفي الصواب.. وكان منذ نقله إلى وظيفة الإفتاء لا يزال يلفت نظر الحكومة ويلح عليها لتلافي هذا النقص (عيوب نظام المحاكم الشرعية) فعهدت إليه أن ينظر الأمر.. وشكلت لجنتين تحت رياسته: الأولى مركبة من أفاضل العلماء والثانية مؤلفة من أكابر رجال العلم والعمل أيضا. وكلفتهما بوضع مشروع لمدرسة القضاء الشرعي. فكان رحمه الله مع ما فيه من المرض يواصل العمل في ليله ونهاره حتى أتمه ورفعه إلى الحكومة قبيل قيامه إلى الإسكندرية ببضعة أيام والله يعلم ما سيئول إليه بعده أمر هذا المشروع الخطير [٨٨].

ومجمل ما يقال إنه لم يعمل في المجلس مدة وجوده عمل إلا كان له فيه الرأي الرشيد، والقول السديد. وما انتخبت لجنة في مشروع إلا كان أول المنتخبين. ولم يتألف وفد لمفاوضة

---

(٨٨) تكفل سعد زغلول بالمشروع إذ صار وزيرا للمعارف سنة ١٩٠٦ وأعد قانونا بإنشاء المدرسة فأنشئت ورأسها محمد عاطف بركات باشا، وخرجت الجيل العظيم للقضاة الشرعيين. أما إصلاح القوانين فتكفلت به لجان تتابعت على مدى النصف الأول من القرن العشرين.

الحكومة إلا كانت له الصدارة.. إذا عرضت المشروعات القانونية كان بها خبيرا بصيرا. وإذا قدمت اللوائح الإدارية لم يكن أقل من أهلها علما بدقائقها.. وإذا جاءت المسائل المالية رأيته ماهرا بأساليب الحساب عارفا بفنون الاقتصاد.. كالقطر حيثما وقع نفع).

***

ولئن كان اهتمام المجلس التشريعي والحكومة بالقضاء اجتماعا للسلطات الثلاث في الدولة على الإصلاح بعمل الإمام في المجلس الذي صار عضوا فيه، أو كان هذان الاهتمام والاجتماع هما رجع الصدى لصوته في التقرير الشهير، أو كان جهاده الديني بإصلاح الأزهر وتطهير العقيدة، وتحرير الفكر، وتفسير القرآن، عمله اليومي طول حياته، إن جمعه بين اللغة والدين في منهاجه التعليمي وبين تقنين المعاملات وتقنين أحكام الأسرة في التقرير المشار إليه، هو في واقع أمره ظاهرة دستورية يقدمها إمام العصور الحديثة للأمة العربية عامة، ومصر خاصة، لتتمسك بمقوماتها السياسية والاجتماعية. فهذه الأمور الثلاثة (الدين والشريعة واللغة) أمور "تأسيسية" "أو دستورية" لا كيان من دونها لدولة عربية.

ولما أخذ واضعو دستور سنة ١٩٧١ إخذه في أواخر القرن العشرين مستجيبين لإصرار الأمة بعد تجارب مخفقة بدساتير متعددة من أول القرن، دلوا على سبقه بمقدار قرن في الفكر الدستوري للأمة، وعلى سبقه الأعظم بتنفيذ ذلك بنفسه في الأمور الثلاثة وجمعه بينها في ميادين كفاحه. وآية ذلك نص المادة الثانية من دستور مصر سنة ١٩٧١ (الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية ومبادئ الشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع).

وبالشريعة التي تحمي القيم الإسلامية وتجتمع عليها الأمة العربية، والدين الذي تتمثل فيه عقيدتها الجامعة، وباللغة التي ترتبط بها ألسنتها وأفكارها، نشأت القومية العربية. ولا قيام للوحدة العربية بغير هذه العناصر الثلاثة. فالقومية والوحدة العربيتان تشهدان كذلك بالسبق لإمام العصور الحديثة.

***

ولئن كان عجيبا سبق الإمام في أمور دستورية، إن الأعجب أن يكون "رجل إدارة" لا ضريب له. والإدارة أعقد من الزعامة والقيادة. إذ هي تنفيذ يومي يجري على أيدي رجال آخرين، كثيرين كثرة عملهم في أجواء شتى، بين تيارات متعارضة، لمصالح مختلفة الغايات والوسائل، على وجه الدوام. والإدارة أشد تعقيدا إذا كان المدير عالما في الدين مطلوبا منه الأداء العادل

والشرعي، أي النموذجي لكل حركة وسكنة. ومن ذلك تجري العادة بألا يكون رجل الدين أو التشريع أو القضاء أو التعليم أو الفنون (رجل إدارة) أو (رجل دولة).

ونجاح الإمام في إدارته وصحبه للجمعية الخيرية، أو لمجلس إدارة الأزهر أو الأوقاف أو لوظيفة الإفتاء، أو لنشاط مجلس الشورى، ليس إلا تكرار أو استمرار نجاحه في إدارة الوقائع المصرية وتوجيه محرريها الخالدين وهو في الثلاثين من عمره. وكان إصلاحيا قوميا انتهى إلى تحريك شعور عام أو رأي عام أشاد به في مذكراته [٨٩].

لقد قدر على نفسه، فقدر على قيادة القادة. ودار منذئذ في الفلك الخاص به وأمسى لا تبغته عظيمة وتواتيه سعة أفقه في كف الظالمين عن ظلمهم فينصفهم من أنفسهم وينصف الناس منهم، وينتصر للحق والحقيقة. ويدفع الطواغيت إليهما، بهدوء وثقة:

إليك أمثالا:

يستنصحه كرومر في موضوع النيابة العمومية المعروض على مجلس الوزراء برياسة الخديو لإقراره، وقد سبق أن تحدثنا عنه، وما كان ذلك إلا صيغة في طلب تأييده للمشروع. فلا

---

(٨٩) قال (وأول ما بدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التي كانت متبعة في النظارات والإدارات. فأخذت تبين وجه الخلل فيها وإضرارها بفهم المعاني المطلوبة منها.

فلم تمض بضعة أشهر حتى ظهر فضل ذوي الإلمام باللغة العربية من موظفي الحكومة. وخصهم رؤساؤهم بمخاطبة الجريدة الرسمية سترا لعيوب الإدارات. واضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أو المبادرة إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير وعم ذلك المديريات كما عم النظارات (الوزارات)... وذلك هو تاريخ إصلاح التحرير في مصالح الحكومة وما زال يتقدم إلى اليوم.

وهكذا كان شأن الجرائد... كانت تتسابق في إظهار مزاياها في التحرير حتى ترضي إدارة المطبوعات. وصلح بذلك كثير من أساليب الجرائد التي لم تكن لها عناية بتهذيب العبارات وتسابقت الأقلام في تنقيح الألفاظ وضبط المطالب فتمت بذلك نهضة التحرير التي كانت بدأت من سنين وكان الضعف يقعدها والخوف يرعدها.

سهلت بذلك المواصلات بين الأنفس في الأفكار. وخف عليها التعبير عما في الضمائر وكثر الكاتبون وغزرت مادة المتكلمين وتيسر التعارف بين المتباعدين ونشأ في الناس نوع من الألفة أحدثه الشعور بجامعة اللغة. وبعد أن كان نظر الواحد منهم لا يجاوز شخصه أصبح وهو يشرف على قضاء يسع أمته. وأخذ يشعر بأن له حركة عامة في المقصد العام كما أن له حركة خاصة إلى الغرض الخاص..).

يفلح دهاء الدهى في إبلاغه غرضه، ويعلن الشيخ وجه المصلحة العامة ويسوق إليه الطاغية عن طريق مصلحته الخاصة!

ويعوذ به الخديو يوم عزم كرومر سنة ١٨٩٨ أن يمنع دولة الخلافة تعيين القاضي الشرعي لمصر. وكان ذلك آخر مظهر لعلاقة مصر بدولة الخلافة والخديو لا يرى قطعها لحساب المحتلين وبمناسبة شرعية. فينصحه محمد عبده أن يعلن لكرومر أن "الضمير الديني" يمنعه أن يتصرف ذلك التصرف. فتراجع الطاغية. ولم تنقطع العلاقة الشرعية إلا بعد إعلان إنجلترا حمايتها على مصر سنة ١٩١٤.

وذات يوم هرول إليه الخديو يخبره يخبره أن الطاغية مصمم على اقتحام قصره بحثا عن رجل أرمني (ليون فهمي) زور أختام دولة الخلافة في إسطنبول، وطلبت إحضاره من مصر، فجمع الشيخ بين الحقيقة والحق في نصحه. فأشار على الخديو بأن يستوثق مما إذا كان الرجل موجودا أو غير موجود في قصره أو في اليخت (المحروسة) الذي قد ينقله إلى إسطنبول، فإذا لم يكن موجودا أعلن الخديو للملأ أن كرومر يريد اقتحام قصره وأنه يرفض ذلك وإنما يأذن لعميد القناصل أن يفتش ما شاء.. فتراجع الطاغية مخافة أزمة، وخلى الخديو سبيل الرجل.

في مصر وخارج مصر:

والشيخ أشد فتاء ومضاء إذ يحدر من الخمسين إلى الستين. تجيئه المناصب العالية منقادة فيحولها من "مراكز قيادة" إلى "مواقع عمل" ويجعل "السلطة" التي له "مسئولية" عليه.

آتاه الله صحة نفس وجسم راضها بالتصوف. وفؤادا كله التقوى والشجاعة والزهد فيما يتكالب عليه بنو الدنيا. فلا تتساءل من أين جاءه الوقت، والطاقة، والتوفيق، ليجمع بين كل أعماله وليجعلها مصداق أقوالهن مع الاستكثار من تبعاته، وتلقيه التكاليف من نفسه وزيادتها بازدياد فرصه في مواقع عمله:

ساعتان في كل درس، خمس ليال في كل أسبوع، طوال أعوام ستة! يحتاج التحضير لهما إلى أيام وليال مع التفرغ الكامل. فوق أعمال المجلس التشريعي الدائب وأعمال مجلس إدارة الأزهر المقيم في "موقع العمل". وآمال أمة تطلب لدى الجمعية الخيرية تعليما لا تقدمه الدولة وأموالا تعين القانع والمعتر. ودار إفتاء لا تتوقف عن الجواب عما يرد من شتى الأرجاء، والتفسير القرآني يطبع، والأبحاث والترجمات تترى في مجلة المنار فتجلجل في الآفاق والشيخ

تلاحقه "الملازم".. ويكتب من أوربا إلى تلميذه رشيد رضا [٩٠] (١٩٣٥) أو من مصيف رأس البر فيقول عن رأسه ورأس البر (رأس البر لا عقل فيه ولا عمل. ذلك لا يمنع إرسال ملازم التفسير. كلام الله يرد القار من العقول ويعمر الخراب منها).

وثمة (الدرس العالي الخاص) في الدار ومن حضارة قاسم أمين ومحمد كرد علي وشفيق العظم وإسماعيل صبري وفتحي زغلول وأحمد المحمصاني وأحمد إبراهيم وفيه ينقد مجلس النظار فيسميه (جمعية الصم البكم) ويقول عن الكبراء (هؤلاء الشاغلين للوظائف الكبيرة التي يدعون بها كبراء.

نحن نستخدمهم ولكن لا نخدمهم) وفي المجلس فقه وأصول وبلاغة وسيرة وغير ذلك.

ويستعمل حافظ إبراهيم تصوير الإمام لمجلس الوزراء في وداع كرومر عند استقالته عقب حادث دنشواي فيقول له:

يناديك: وليت الوزارة (هيئة من الصم) لم تسمع لأصواتنا صدى

ويتجلى الإمام في فن التراجم [٩١] حيث ينساب الفيض الإنساني في الكلمات، وتجري الحياة في الترجمات. وينتهز الفرص ليعلم ويلفت النظر ويقضي حق عظماء جيله. كمثل ما كتب عند موت الشيخ على الليثي شاعر الخديو إسماعيل، لينبه الخديو الذي حل محل أبيه وجده، وبينه الوزراء والعلماء والشعراء قال.

(.... وأول قول قاله للخديو (توفيق) أن نصحه قال: قد أمكنك الله من رقابهم (الثوار) وأجدر بك أن تعفو عنهم فتملك أفئدتهم بالمرحمة، وتستعبد أحرارهم بالإحسان. ذلك خير من أن تدمي قلوبهم بالعقوبة وتورث أعقابهم..) مكانة من الشجاعة لم يصعد إليها أحد غيره، ومنزلة من الفضل وحب الخير لم تسع معه سواه. (شر بعض محبي الانتقام من الوزراء.. فأرسل إليه

---

(٩٠) ولد سنة ١٨٨٦ وأتم تعليمه بطرابلس بلبنان ولقي الأستاذ الإمام في مصيفه سنة ١٨٩٤ ومعه فتحي باشا زغلول ثم قدم إلى مصر مهاجرا فلزمه واستشار، في إصدار مجلة إسلامية فاستحسن الإمام أن يكون اسمها (المنار) وساعد على نشرها وجمع المشتركين لها. وأوصاه ألا يكتب في السياسة واختصها بمقالاته وترجماته وإرشاداته وفيها نشر تفسير. وللشيخ رشيد بهذا درجة بين تلاميذ الإمام.

(٩١) من تراجمه ترجمة للشريف الرضي في مقدمة نهج البلاغة – وللسيد جمال الدين – وللبارودي – ولرياض باشا – وترجمته لنفسه.

يطلب منه أن يذهب إلى أملاكه في ناحية الصف ليقيم بها. ورأى من الخديو رغبة في ذلك. فانطلق مغاضبا ولزم بيته ينظر في شئونه نحو سنة من الزمان. وأفاق الخديو مما كان غشيه. فطلب من الشيخ رحمه الله أن يأتي إلى حضرته فأبى أن يجيب طلبه. وترفع أن يبادر إلى أمر كان غيره يلتمس إليه الوسائل، ويستشفع إليه بالحق وبالباطل. واستمر يتحصن بعزة نفسه إلى أن وافاه الخديو في عزبته بالصف مصحوبا بحرمه، وحاشيته وحشمه، فأكرم الشيخ لقاءه وعاد بعد ذلك إلى الإخلاص في ولائه).

والبرد في غدو ورواح بينه وبين العلماء في أقصى الأرض وأدناها حول الشعر والأدب والاجتماع وفلسفة الأشياء، يقرظ المؤلفات ويعلق على الترجمات، ويزجي أبلغ الثناء على المتبرعين للغرض العام، ويخص علماء العالم الإسلامي بكفل من اهتمامه، مسلمين ومسيحيين، فإبراهيم اليازجي [٩٢] وسليمان البستاني وأسرتاهما أصدقاء دائمون. من عهد بيروت.

وفي بيروت كان القس إسحق تيلر يدعو لتوحيد الأديان ويثني عظيم الثناء على الإسلام، ومن مصر يكتب الإمام إليه (أنت أول رئيس ديني صدع بالحق في أهل ملته.. وأن هذا الأمر الذي قمت به لعظيم الفوائد.. تحس منه تحرك أهل الملتين إلى الملاقاة على صراط الوحدة..)

ويرد على خطاب له بقوله: (كنت في القدس الشريف لزيارة المواطن المقدسة التي أجمع عليها أهل الأديان الثلاثة. وفيها يرى الزائر كأن دوحة واحدة هي الدين الحق تفرعت عنها..).

***

وينزل الفيلسوف الروسي (الكونت تولتسوي) عن ماله كله للفقراء ويسيح في الأرض سياحة الصوفية القدماء: إبراهيم بن أدهم وشقيق وبشر الحافي. فتوقع عليه الكنيسة عقوبة الحرمان، فتمتد بصيرة الشيخ إلى بعيد ليربط بين القيم التي يفسر بها القرآن لقومه في الرواق العباسي وبين ما يجب على الأمراء والعلماء والقساوسة والناس قاطبة ويكتب إلى تولستوي.

(عين شمس في ١٨ أبريل سنة ١٩٠٤.

---

(٩٢) عالم لغوي مسيحي قضى حياته في بيروت يهز بشعر، الوطني الأمة العربية. هاجر إلى مصر في أواخر حياته. له كتاب (نجعة الرائد في المترادف والمتوارد) كان شعر، يسجل في منشورات سرية. أصدر في مصر مجلة البيان – مات سنة ١٩٠٦.

أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوي.. وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي به الضالون كان مثالك في العمل إماما يهتدي به المسترشدون. وكما كان وجودك توبيخا من الله للأغنياء كان مددا من عناية الله للفقراء. وإن أرفع مجد بلغته وأعظم جزاء نلته على متاعبك في النصح والإرشاد لهو الذي سموه بالحرمان والإبعاد، فليس ما كان من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين – مفتي الديار المصرية محمد عبده).

في هذا الخطاب جلى محمد عبده لتولستوي صورته، وجلى لنا حقيقة محمد عبده، في جسارة رام يصيب بطلقة واحدة، أهدافا متباعدة، في قلوب الحكومات والجماعات، فيندد بالأغنياء وينوه بالفقراء، ويقرن اسمه بوظيفته (مفتي الديار المصرية)، وهي دولة رأسمالية على رأسها صاحب ملك عريض وفي مرافقها جيوش من المستعمرين. بل يندد برجال الكنيسة الذين قرروا حرمان الفيلسوف ويعتبر الحرمان الديني من القساوسة، أعظم كسب ناله المحروم! ويعلن أنه ليس من الضالين ليكون القساوسة – بمفهوم المخالفة – هم الضالين.

ومن ناحية أخرى كان صدى صوته يصدع مسامع الخديو، مذ كان في ربيع العام ذاته يأكل مال الأوقاف بالباطل، ويضن بها على عمال المساجد وأئمتها، والشيخ يمطره بالاحتجاجات في شكل قرارات أو مذكرات إلى مجلس الأوقاف.

***

ولا يثنيه الألم من ظلم صاحب العرش في مصر عن الأمل في خدمة العلم عند صاحب العرش في مراكش، فيكتب إلى موالي عبد العزيز يطلب أصلا من "مدونة مالك" لتطبعه جمعية إحياء الكتب العربية التي يرأسها – وهي أولى جمعيات إحياء التراث الإسلامي – فيذيع بعملها فيقول: (... وخاصة عملها أن تبحث عما كان يفقد من كتب السلف وتصحح نسخه وتطبعه حتى يحيا بذلك ما اندرس من علوم الأولين.. وهي الآن تبحث عن مدونة الإمام مالك.. وقد تأكد الفقير (يقصد نفسه) أن نسخة كاملة من الكتاب توجد في جامع القرويين..).

ولا تنام عينه عن المجاهدين: يقول في رسالة جوابية إلى عبد الحميد الزهراوي من مجاهدي حمص بسورية: (فأنت حيث أنت أنفع ما تكون لقومك، تجعل لهم حظا من عمل يومك.. أسأل الله أن يشد أزرك.. وأما صلتنا فصلة آمال وأعمال وهي خير صلة).

وعبد الحميد الزهراوي واحد من الأبطال الذين سيقطع الأتراك رءوسهم في الساحة العامة سنة ١٩١٦.

***

والشيخ يستقبل الصحفيين الأجانب والمصريين والمستشرقين. وقد يجود الزمان على صحفي إنجليزي بمشهده على ظهر جواده في صحراء عين شمس أو في طريقه إلى داره فيصوره لنا في (صورة إنسان يقول الناظر إليها إنها برزت من كتب الأنبياء الأقدمين شيخ حسن البزة جهير يمتطي فرسا كميتا جميلا يقبل نحونا على مهل). والرسول عليه السلام يقول "عليم بكل كميت أغر محجل".

والشيخ يصطاف في كل عام بأوربا أو اسطنبول أو في الشام وفي صحبته تلاميذ له أو في الإسكندرية أو رأس البر حيث يصطاف معه قاسم أمين، وكان يقول: إنني أجدد نفسي بالسفر.

وفي سنة ١٩٠١ رجع من أوربا فاستقبله مصطفى لطفي المنفلوطي بقصيدة شفت عن مواقف خصومه. وتقاطر الناس لاستقباله على محطة القاهرة، وكثرة عمائم الأزهريين فيهم تستوقف النظر. وانطلقت الوفود تترى إلى داره بعين شمس حتى لتزيد قطارات السكة الحديد لمواجهة تلك المناسبة.

وفي سنة ١٩٠٣ عاد من رحلته للخارج فاستقبله تلميذه مصطفى عبد الرازق – وكان في الثامنة عشرة – بقصيدة مطلعها:

أقبل عليك تحية وسلام يا ساهرا والمسلمون نيام

فكتب إليه الإمام:

(ولدنا الأديب:

خير الكلام ما وافق حالا وحوى من النفس مثالا. تلك أبياتك العشرة رأيتني والحمد لله متربعا في سبعة منها كأنها الكواكب التي تسكنها الملائكة وما بقي كأنه الشهب نور للأحياء رجوم للأشقياء.. ما سررت بشيء سروري بأنك شعرت من علم حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك. ذلك أنت ولله أبوك.

ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت إليك من الثناء ما يملأ وجه الفضاء. ولكني أكتفي بالإخلاص في الدعاء أن يمتعني الله من نهايتك بما تفرسته في بدايتك. وأن يخلص للحق سرك ويقدرك على الهداية إليه وينشط نفسك لجمع قومك عليه. والسلام) [٩٣].

واستجابت السماء فأمسى مصطفى في نهايته – كما كان طول حياته – خيرا كله خالصا للحق سره.

وتكاثرت على يد الرجل الصالح أمارات عطف السماء بالاستجابة للدعاء والرجاء.

ففي سنة ١٨٩٩ عين عضوا في مجلس الشورى، وكان رئيسه عمر لطفي باشا وقد أسلفنا اتهامه له وللخديو بالتآمر على الأمة سنة ١٨٨٢. فكان الإمام يدعو الله أن يجد له مخرجا حتى لا يوجه إليه كلمة وتأجلت الجلسة الأولى إلى أول أغسطس ومات الرئيس في ١٧ يوليو.

ويروي الشيخ مصطفى قوله إذ ترك إدارة الأزهر سنة ١٩٠٥ (يظنون أنني بخروجي من الأزهر تركته مرعى خصيبا لشهواتهم (يقصد الخديو) ترتع حيث تشاء. إلا أنني ألقيت بين جوانح هذا المكان شعلة لا تنطفئ. إن لم تلتهب اليوم أو غدا، فستلتهب في ثلاثين عاما فتكون ضراما).

---

(٩٣) أثر هذا الفيض من المحبة في تنشئة التلاميذ ليس له حدود. وهو الذي زاد العلاقة بينهم وبينه وثاقة. اقرأ كتابه القصير إلى أمير البيان شكيب أرسلان (١٨٧٩ – ١٩٤٦) – تلميذه في المدرسة السلطانية إذ يكتب إليه شكيب – بعد عامين من تركه المدرسة – يستشير، في القدوم إلى مصر.

(حضرة الأمير الفاضل – من نحو ساعة وصلني رقيمك.. وقد زال عني ما كنت أجد من تأخر رسائلك.. وكان أحب إلي أن تسبق كتابك.. أما الفخام فلا أرى فيهم فخيما وسواء لاقيتهم أم لم تلقهم فأنت عندي أفضل من جميعهم. وإنك إن تلقهم لم تلق شيئا. فتعال وليكتف كل منا بصاحبه.. وأما المصارف فلا تحتاج فيها لغير المراكب والوابورات حتى تصل إلى القاهرة.. وأقم ما شئت فلن تجد سائما ولا مالا ولا متبرما. فقم في أول وابور إن شئت والسلام – ليلة ٩ فبراير ١٨٩٠).

ويروي الأمير شكيب أنهما مرا ذات ليلة أمام دار فيحاء فوقف الإمام وقال: هذا بيت صاحبنا. وتنهد.. دار محمود سامي البارودي (البارودي باشا) وقال شكيب: لم يتنهد على غرة سامي. بل على غرة مصر.

ولم يجمعه الإمام بالفخام بل زار معه سعد أفني زغلول – وكان محاميا – والشيخ علي الليثي. فهذان مستقبل مصر وماضيها. وأصحبه الشيخ عبد الكريم سلمان ليزور بعض العلماء فلاحظ على الشيخ الأحمدي الظواهري أنه لا يعرف أين وجد جبل لبنان. في الغرب أم في الشرق.

وفي أقل من نصف هذا الأجل قامت ثورة سنة ١٩١٩ بقيادة تلاميذه. وكان الأزهر ضراما يلهبه تلميذه "الشيخ الزنكلوني" إذ يخطبه. وفي سنة ١٩٣٠ صب الزنكلوني غضبه على الملك فؤاد، ففصله وعشرات من تلاميذه العلماء.

***

والشيخ قارئ لا تغمض عيناه عن الصحف الواردة من الخارج وقد يترجم ما يجعبه لينشر في مجلة المنار [٩٤] وعيناه على صحف الداخل يقرأ مقالا عن انتخاب الجنرال جارفيلد رئيساً للولايات المتحدة فيكتب (.. إن هذا الرجل لم يصل إليه بلزوم أعتاب الكبراء.. هكذا يرتفع أبناء الأوساط والآحاد من الناس بالصفات الفاضلة وسعة المعلومات وبذل الجهد فيما يعود على البلاد من الخير).

ويقرأ في جريدة المؤيد سنة ١٩٠٠ ترجمة لمقال (هانوتو) وهو وزير خارجية سابق لفرنسا يزري فيه بعقائد المسلمين ليبرر استعمار بلادهم فرد عليه الإمام بقوة. واستفتح بنفي النزاهة العلمية للباحث، بقدح كأنه مدح قال:

(قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو تتميما لبحثه السابق – وبحثه دافق من غيرته على شئون دولته) واستطرد لمناقشة قوله إن فكرة (الإله الإنسان) ترفع قيمة الإنسان وتدفع إلى الجد والدأب وإن عقيدة المسلمين في القضاء والقدر تدفعهم إلى الخمول.

ومن حجج الشيخ الكثيرة في رده واحدة تكفي لإدحاض رأي هانوتو وهي أن بالقرآن ٦٤ آية تثبت حرية الإرادة الإنسانية – فالإجبار الذي نسبه هانوتو إلى المسلمين ليس من الإسلام [٩٥] وهو في غير موضع ينبه على أن السعادة التي يعيش فيها الآخرون مفتراة. يقول: (قد يمر

---

(٩٤) مثل ترجمته نبذة قرأها في جريدة فرنسية لحديث البرنس بسمارك (مستشار ألمانيا) عن الإحساس بالله الذي يدفع الجنود إلى التضحية بالنفس منها قوله: (لو لم يكن لي إيمان بالعناية الإلهية التي قضت بأن يكون لهذهالأمة الألمانية شأن كبير واثر باطن لطرحت لساعتي ما حملته من أثقال الوظائف.. ولولا يقيني بحياة بعد الموت ما كانت من حزب الملكية.. لو لم أكن مخلصا في ديني لوليت ظهري جميع الحاشية..) ويعلق الشيخ على ذلك بقوله (الاعتقاد بالله واليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما(بسمارك) إلى ما لم يدركه فيه مفاخر.. ولم يكثر فيه مكاثر).

(٩٥) في هذا العهد هاجر إلى مصر من العراق عبد المحسن الكاظمي المقلب بشاعر العرب فهلل للإمام في قصيدته العينية وفيها يقول:

بخاطر الإنسان أن يسأل.. وما بالنا نرى من غير المؤمنين من متع بالسعادة في هذه الدنيا أمما وأفرادا وترى من المؤمنين من يغمره الشقاء أمما وآحادا.. فندفع عنه الخاطر بأن ما يراه في بعض الأمم من ظاهر السعادة ليس إلا لمعان السراب.. قال ماكس نوردو في كتابه المسمى (الأكاذيب العرفية لتمدننا).

(إن الناس كانوا ولم يزالوا يطلبون الحق ولم يكونوا في زمان ابعد عنه منهم في هذا الزمان) ثم قال ما ترجمته "أنك لو طرقت أي باب تسأل: هل مرت السعادة بهذا البيت لأجابك مجيب: إذا شئت فاطرق بابا آخر فإن السعادة لم تمر ببيتنا" وهو يقول ذلك بعد أن ذكر حال الأمم الأوربية جميعها..).

وكان مصطفى كامل في عشريناته قد امتدت الأسباب بينه وبين الخديو، لكن الإمام لا يغفو عن فرطاته إذا أعطى رأس العائلة المالكة مجدا لا يستحقه، عندما اقترح إقامة احتفال قومي يوم ٢١/ ٥/ ١٩٠٢ لمرور مائة عام هجري على تولية محمد علي فطلع على الناس مقال من نار في مجلة المنار لسان محمد عبده [٩٦]، يضع أمر عرش محمد علي في نصابه، حتى لا

فجاءوا إلى الإسلام يعترضونه سفاها فشاموا أن واديه مسبع
واقسم أني لو شحذت مقالتي لراح بها (هانوت) وهو مضع (مقطع)

(٩٦) إليك بعض ما جاء في المقال:

(ما الذي صنعه محمد علي! لم يستطع أن يحيى ولكن استطاع أن يميت. كان معظم قوة الجيش معه وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة، أخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا.. وتكرر هذا مرارا حتى فسد بأس الأهالي وزالت ملكة الشجاعة فيهم.. أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه، ورثه عن أصله الكرم، حتى انحط الكرام وساد اللئام.. ليصير البلاد المصرية جميعها إقطاعا له ولأولاده على أثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة.

ماذا صنع بعد ذلك؟ اشرأبت نفسه لأن يكون ملكا غير تابع للسلطان العثماني فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب أو الأوربيين، فأوسع لهم في المجاملة وزاد لهم في الامتياز خارجا عن حدود المعاهدات.. فاجتمع على البلاد المصرية ذلان: ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة وذل سامهم الأجنبي إياه.. قالوا إنه اطلع نجم العم في سماء البلاد. نعم. عني بالطب لأجل الجيش وعني بالهندسة لأجل الري.. ليستغل إقطاعه الكبير.

تطمس حقائق حكمه بتحيات زيوف، وبهذه الثورة على (محمد علي) سبق الإمام قومه بخمسين عاما تماما.

ولم يمنع هذا الخلاف المتعدد الأطراف بين الأستاذ الإمام من جهة وبين أسرة محمد علي وأذنابها من جهة أخرى وبينه وبين مصطفى كامل من جهة ثالثة، أن يحضر في ٢/٢٧/ ١٩٠٢ احتفال مدرسة مصطفى كامل من جهة ثالثة، أن يحضر ي ٢/٢٧/ ١٩٠٢ احتفال مدرسة مصطفى كامل بتوزيع جوائزها. حيث كان رئيس اللجنة الأمير محمد إبراهيم ووكيلها حسن عاصم، فالتعليم صيحة الجهاد التي أطلقها. وهي الآن تتردد في كل مكان.

***

وقد حان الوقت لإنشاء جامعة بأموال الشعب بعد أن أثبتت المدارس الأهلية قدرتها [٩٧].

هل فكر في إصلاح اللغة عربية أو تركية أو أرنؤودية؟ هل فكر في بناء التربية على قاعدة من الدين الأدب؟ هل خطر في باله أن يجعل للأهالي رأيا في الحكومة في عاصمة البلاد أو أمهات الأقاليم؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل؟ لم يكن من ذلك شيء! أين البيوت المصرية التي أقيمت في عهده على قواعد التربية الحسنة؟

أرسل جماعة من طلاب العلم إلى أوربا ليتعلموا فيها فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا في البلاد ما استفادوا؟ كلا..

أين الزراعة والصناعة..

هل شعر مصري بعظمة أسطوله؟..

أي دين كان دعامة لسلطان محمد علي؟ دين الكراج؟ دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده. وإلا فليقل لنا أحد من الناس أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة الدين الإسلامي الجليل؟

لا يذكرون إلا مسألة الوهابية وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين لا للدين. نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدله بشيء من النقد يسمى (فائض رزامة) لا يساوي جزءًا من الألف من إيرادها وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة!).

(٩٧) نشر جيرفيل بعد وفاته عن التعليم المصري في عهده (إنه لا يكاد يقدر إلا على تعليم رجل محترف ومن المستحيل أن يستطيع هذا التعليم تكوين عالم أو كاتب أو فيلسوف فضلا عن تكوين نابغة.. فلا ترى في الطبقة المتعلمة الرجل الباحث ولا المفكر ولا الفيلسوف ولا العالم ولا ترى الرجل ذا العقل الواسع والنفس العالية الكريمة أو ذلك الذي يرى حياته كلها في مثل أعلى يطمع فيه ويسمو إليه).

والجامعة وحدها هي القادرة على إحياء الحضارة العربية القديمة ونشر الحرية الفكرية. ومن أجل ذلك رحل في سنة ١٩٠٣ إلى أوربا، فزار فرنسا – بعد أن اصدر وزير معارفها غذنا لـه بزيـارة معاهـده – وقصـد إلـى المـؤرخ المستشـرق الـذي أنصـف الحضـارة العلميـة العربيـة (جوستاف لوبون) وكان الإمام قد كلف فتحي زغلول بتعريب مؤلفه. فوجده على سفر. وأبحر إلى إنجلترا فزار جـامعتي أكسفورد وكمبردج – أعظـم جـامعتين فـي ذلـك الزمـان – ليشـهد النشـاط الجـامعي علـى الطبيعـة، ويعـود إلـى مصـر بآرائـه. وندبت أكسفورد المـؤرخ (بويـل) لصـحبته واستقبلته هيأة التدريس في كمبردج على المحطة وفي كمبردج صلى وراءه المستشرق (إدورد براون).

في لندن لقي الفيلسوف البريطاني (هربت سبنسر) وسنقرأ فيما بعد في مذكرة دأب على أن يحتفظ بها ي جيبه – ملاحظة إمام المسلمين على إفلاس الفلسفة: (حار الفيلسوف في حال أوربا وأظهر عجزه مع قوة العلم فأين الدواء؟ الرجوع إلى الدين. الدين هو الذي يكشف الطبيعة الإنسانية ويعرفها لأربابها في كل زمان لكنهم يعودون فيجهلونها).

وفـي العـام ذاتـه سـافر إلـى الجزائـر حيث فسر سورة العصـر. وإلـى تـونس حيث ألقـى محاضرة سنعود إليها. ومر في أثناء عودته بصقلية فرسم الصورة الأدبية الناطقة في مقاله الكبير (رحلة صقلية)، ليتعلم عليها دقة الوصف وبراعة التصوير ورقة التعبير وفصاحة اللفظ حافظ إبراهيم ومصطفى عبد الرازق ومصطفى لطفي المنفلوطي. والأول شاعر النيل والأخيران أرق وأرقى أصحاب الأسلوب في هذا القرن.

وكان الإمام يرى أن مهمة الجامعة (تقوم على تعليم العلوم وفقا للمناهج الحديثة وتسهم في حديد الحضارة العربية القديمة).

وقد عبر حافظ إبراهيم شاعر الإمام عن أغراض الجامعة في قصيدته ومطلعها:

حيـاكم الله أحيـو العلـم والأدبـاء إن تنشـروا العلـم ينشـر فـيكم العربـا
ولا حيـــاة لكـــم إلا بجامعـــة تكـــون أمـــا لطـــلاب العـــلا وأيـــا

فإذا انضاف هؤلاء الثلاثة العظماء إلى الزعيم سعد زغلول، أخطب العرب في هذا العصر وأخطب الخطباء في تاريخ مصر [٩٨]، تكاملت بين أيدينا أبعاد واضحة لإمام صانع أئمة، يقتدي بهم كل من كتب أو نطق باللغة العربية في القرن العشرين للميلاد أو بعده. مما يسوغ لنا أن نقرر أن إصلاح اللغة العربية على أيدي مدرسته هو واحد من أكمل إنجازاته.

في هذه الفترة طلب إليه بعض المستشرقين (بلنت وآخرون) أن يكتب ترجمة حياته فتوقف مليا ثم أنشأ يكتب، ولم يتمم. وكان ما كتب فيها قمة أدبية كرحلة صقلية [٩٩].

---

(٩٨) يشهد لبلاغة سعد القضائية لغة أحكام هي المثل الأعلى للقضاة وشهادة الهلباوي لمرافعاته. إنه كان "أعجوبة المحاكم" أما الشهادة له كخطيب عالمي ففيها قول خمسة من أعلام اللغة العربية في هذا القرن لم يكن فيهم واحد من حزبه: هم السكندري وأحمد أمين وعبد العزيز البشري وعلي الجارم وأحمد ضيف قالوا في كتابهم تاريخ الأدب العربي (أخطب الخطباء غير مدافع وأفصح الفصحاء غير منازع. يجمع إلى جهارة الصوت فصاحة المنطق وسلامة الألفاظ وبراعة التعبير. كأنه سيل لا يعوقه شيء بل إنه يحرف في سبيله كل شيء) ويقول حافظ إبراهيم [... فلو أنك عرضت على سعد ملك الرشيد على أن يهجر الخطابة لنأى عنه بجانبه ولرجع مهرولا إلى الزعامة فإن أفلتت فإلى المحاماة].

(٩٩) هزت رحلة صقلية مشاعر الأستاذ الإمام ففاض قلمه بأحاسيس في كل باب: فالعرب قد دخلا إسبانيا سنة ٩٣ وغلبوا على جنوب فرنسا حيث مصبا نهري الرون والجارون، وكما يقول المؤرخ الإنجليزي جبون: (كان في وسعهم لو مشوا ألف ميل أخرى أن يصلوا إلى مرتفعات سكوتلندا شمال إنجلترا أو حوض الراين شمال ألمانيا) أما صقلية فقد فتحها قاض هو أول قاض عقد له لواء الأسطول – أسد بن الفرات سنة ٢١٢ – وهو فقيه بدأ مالكيا وانتهى حنفيا فهو قاض فقيه حنفي مالكي، مثله. ومن صقلية والأندلس بدأ غزو العلم الإسلامي لعقل أوربا وأنشئت في أوربا جامعات بتمامها لترجمة علومهم ولهذا كانت إيطاليا مهد النهضة العلمية وإسبانيا أسبق الدول إلى القوة في العصور الحديثة.

يبدأ الأستاذ الإمام مقاله الكبير (٢٥ صحيفة من القطع الكبير) تعرض سياحة الإمام فيها خمسة أيام لم يضيع منها دقيقة. ولكل حرف أو كلمة رنينها ومغزاها. فاستفتح بآية من سورة الحج يناسبها المقام: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها..) وتلاحقت درر الوصف والتعليق، وحسبك هنا كلمات تنم عن سائر المقال.

(... توجد كنيسة الملك. ولا حاجة إلى وصفها كذلك. إلا لو كان الله يحب أن تزين له معابده وتنقش لمجده مساجده فكما يحب ذلك ملوك الأرض.. فوجدت في الممر.. حجرا قد كتبت عليه هذه العبارة: (... خرج الأمر من الحضرة الملكية المعظمية الرجارية.. يعمل هذه الآلة لرصد الساعات بمدينة صقلية المحمية سنة ست وثمانين وخمسمائة) ثم في أعلى الحجر سطور بالحرف اليوناني يظهر أنها ترجمة هذه العبارة. والحضرة الرجارية هي حضرة الملك روجار النورمندي الذي دخل جزيرة صقلية وفتحها على العرب وكان لسانه الرسمي في حكومته اللسان العربي واليوناني..

ولما نشر فرح أنطون في مجلة الجامعة بحوثا تفيد محاربة الإسلام للحرية الفكرية كتب الإمام رده الخالد وسنعود إليه بعد.

ابن أبيه

"ولي الأمر" أمير يحكم بالشرع ويرد الأمر عند الحاجة إلى أولي العلم بالشرع.

ويوم تتعطل الشريعة ويتوارى العلماء يتراءى الأمراء الفسقة، كهيئة بنات آوى، في جلود أسود:

.. رأيت في خزينة الجواهر من قصر الملك صندوق عريا في طول نحو ثلثي ذراع.. وهي من صنع العرب أيام دولتهم..).

(.. لذلك كان نائب الملك يصحبه كردينال.. كما نقول عندنا المفتي أو شيخ الإسلام في عهد الملوك الذين لا تسمح أوقاتهم يتعلم العلوم الدينية فيحتاجون إلى من يرجعون إليه. غير أن المفتي أو شيخ الإسلام إنما يجيب على ما يسأل عنه أو يؤدي ما كلف به، أما الكاردينال فكان يبتدئ في المشاورة ويقترح المطلب ويقيم نائب الملك على المذهب ويكف يده عن العمل الذي لا يرضاه ويحمله على بسطها فيما يتوخاه كانت السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية في نظام واحد لا فصل فيه بين السلطتين..

ثم أخذني السادن إلى قبة قريبة من الكنيسة وقال لي: إنها على شكل عربي.. أخبرني أن الإسبانيين عندما غلبوا على سيسليا (صقلية) سلبوا ما كان في هذه الكنيسة.. بل سلبوا الكنائس كل ما كان فيها من المصنوعات الفضية كذلك. فقلت لصاحب كان معي: يظهر أن كل فاتح يرى من الواجب عليه أن يفسد شيئا من عمل من سبقه. فكان كل منهم يقوم بما يراه واجبا عليه) ويقول لينصف العرب من أعدائهم ومن أنفسهم:

(ومن ذلك تعرف أن العرب رحمهم الله لم يمسوا هذا الكنيسة بسوء برغم عظمة سطوتهم.. ولم يريدوا أن يقتفوا أثر خصومهم ممن كان يهدم مساجدهم ويخرب معابدهم. فحيا الله أيامهم..).

لقد استولى العرب بعد فتح صقلية على كنيستي القديس بطرس وبولس في روما سنة ٢٣٣ هـ - ٨٤٦م للهجرة ثم جلوا عنهما مصونتين..

ويستطرد الأستاذ الإمام فيقول: موجها الكلام لكل العصور (لا جرم أن الإسلام عربي وأحق الناس برعايته والوقوف عند حدوده - بعد فهم حقيقته - هم العرب. فأين هم؟

يمكن أن يقول قائل: في جزيرة العرب أو الشام أو العراق أو في مصر أو الجزائر أو تونس أو المغرب الأقصى. أفلم يكفك هذا العدد في أكثر من ألف بلد؟.. ولكني أقول له: إنما يكون أولئك إذا بقيت لهم أخلاقهم وحياة أرواحهم. فإن لم يبق إلا أشباح تشبه أشباحهم فليسوا بهم. فلي الحق أن أقول عن العرب: فأين هم؟...).

كانت فرنسا ومؤسساتها الدستورية وصحافتها ضائقة الصدر بإنجلترا لانفرادها باستعمار مصر. فوسع صدرها جهاد المصريين. ومن ذلك صدرت العروة الوثقى في باريس سنة ١٨٨٤ ولقي مصطفى كامل الخطب ونشر المقالات فيها في التسعينات من القرن، وأغرم بالدراسات الفرنسية حتى ليترك مدرسة الحقوق الخديوية ليتخرج بشهادة من كلية الحقوق في تولوز سنة ١٨٩٤ وهو في العشرين. كما كانت الحكومة تبعث بعثاتها إلى فرنسا لدراسة القوانين الفرنسية المطبقة في مصر.

فلما كان الثامن من أبريل سنة ١٩٠٤ عقد فرنسا وإنجلترا ما سماه المؤرخون (الاتفاق الودي L' Enente Cordiale وفي أولي مواده نص صريح (ليس في نية إنجلترا تغيير سياستها الحالية في مصر وتتعهد فرنسا من جانبها بألا تعرقل عمل إنجلترا في هذه البلاد لا بطلب تحديد أجل للاحتلال البريطاني ولا بأي صورة أخرى).

هكذا اتفق الطرفان على دوام الاحتلال ولم يبق لمصري أمل في فرنسا. وأوجس الخديو خيفة على عرشه فصنع ما صنعه أبوه، فوقف تحت العلم البريطاني في ٩/ ١١/ ١٩٠٤ عيد ميلاد ملك الإنجليز. وقبل تعيين ياور إنجليزي له! وأكب على وجهه يلتمس كل فرصة للثراء. كالمحكوم عليه بالإعدام إذ يستكثر من الطعام [١٠٠].

وأخذ يناور مصطفى كامل. فقطع الزعيم الشاب صلته به في أكتوبر سنة ١٩٠٤. ثم أصلاه نارا حامية في (اللواء) يوم أحال للمعاش حسن عاصم في ٢٦/ ١١/ ١٩٠٤ إذ أخفقت المؤامرة بين الخديو و(زرفوداكي) على مجلس الأوقاف لمبادلة أراضي بناء له في الجيزة بتفتيش "مشتهر". ولم يعد الخديو يطيق جوار الشرفاء.

وساء استسلامه للإنجليز كل من قاربه حتى ليترافع الهلباوي ضده. وهو مستشاره، عن متهمين بسرقة من جزيرة له تسمى جزيرة الزبرجد. ثم يترافع ضده عن أحمد حلمي عندما اتهم

---

(١٠٠) خاطب حافظ إبراهيم مصر في أعقاب الاتفاق الودي بقصيدة كبيرة مما جاء فيها:

أيعجبني منك يوم الوفاق ... سكوت الجماد ولعب الصبي
وكم ذا بمصر من المضحكات ... كما قال فيها الطبيب (المتنبي)
أمور تمر وعيش يمر ... ونحن من اللهو في ملعب

بالقذف في الخديو – بعد أن لوح رئيس الوزراء مصطفى فهمي ووزير العدل (رشدي) للهلباوي بأن الخديو لا يقبل ذلك – فأدرك قصدهما وقذف في وجه الخديو بوظائفه الثلاثة: ثم ترافع!

***

لكن جشع الخديو لا يمنع بيوت الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.. وكان الإمام قد استصدر قرارا من المجلس الأعلى للأوقاف في ١٨ فبراير سنة ١٩٠٤ بزيادة ميزانية المساجد ومرتبات الأئمة بمبلغ ١٨٠٠٠ جنيه، فأصدر الخديو قرارا في ٣١/ ٥/ ١٩٠٤ بوقف القرار حتى لا تتحمل أوقافها – وهي في نظارته – مبلغ ١٨٠٠٠ جنيه، فقدم الإمام – باعتباره عضوا في المجلس الأعلى – مشروع قانون من ٢٣ مادة ومذكرة إيضاحية مما قاله فيها:

(وحيث إن هذا الترتيب صدر لنا أمر عال بتاريخ ٣١ مايو سنة ١٩٠٤ بإيقاف تنفيذه لحينما ينظر فيه من "جناب ولي النعم الأفخم" وحيث إن ترك هؤلاء الخدمة (للمساجد) تهلكهم المرتبات القليلة وهم يصيحون ويستغيثون، ليس مما يليق بمصلحة خيرية تجود بالكثير من أموالها في وجوه البر والخير على الفقراء والمساكين.، وأجدر بها أن تفيض بشيء على من يقيمون شعائر الدين ويقومون بخدمة هذه المحال الطاهرة...).

***

وليس بدعا وقد استوثق الخديو لنفسه بالزلفى إلى الإنجليز، أن يبعث إلى اللورد كرومر بميزانية المساجد كأنما يشكو حملة محمد عبده عليه، ثم يرفع السراق الأقنعة ويعلو فحيح الأفاعي في الأزهر وفي الصحف أو تقدم الشكاوى ضد الإمام من المشايخ [١٠١] أو يرتفع الصوت الكريه للصحف المأجورة. أو تطلع إحداها بصورة لمفتي الديار يخاصر امرأة أجنبية وكلبها يعبث بأطراف جبته! ويثبت الطبيب الشرعي تلفيق الصورة. فكلها صحف أطلقتها أموال ولي النعم، يقول عنها أحمد بك قمحة قاضي محكمة عابدين – وهو من فحول رجال القانون.

---

(١٠١) في الوقت الذي كان المشايخ يصنعون ذلك كله كان محمد عبده يصنع صنيعا آخر في تأبينه خليل مطران بعد شهور – وهو صاحب جريدة الجوائب المصرية التي كانت تنشر للمشايخ ضده – (إن أنجال المشايخ بالأزهر كانوا يتناولون مرتبات آبائهم بالوراثة فرأى الأستاذ في ذلك غبنا للعلماء لأن هذه المرتبات إنما هي وقف عليهم فأعاده الأستاذ إليهم وعوض أنجال المشايخ بما كان يجمعه بسعيه في رأس كل شهر من أمواله وأموال محبيه. ولقد شوهد وهو ساع هذا السعي عقب اعتزاله الأزهر وقيام الشيوخ في وجهه محاربين).

(وحيث إنه مما يدعو إلى الأسف ظهور بعض جرايد في هذا العهد يحررها أناس منزلتهم من العلم والفضل تدور بين الشك واليقين. حتى لقد يقود زمام بعضها من لا دراية له بشيء من القراءة والكتابة على الإطلاق مثل صاحب جريدة الفونوغراف فإنه من الأميين كما ظهر في قضية شهد فيها أمام إحدى المحاكم حيث وقع الشهادة بالختم مصرحا بأنه لا علم له بالكتابة... وحيث إن الضرر على المجتمع الإنساني من وجود تلك الوريقات المنحطة التي لا تنطق إلا بسفساف القول...).

قضية النيابة ضد صاحب جريدتي الباباد وغلو المصري والأرنب. وكان عنوان المقال موضوع المحاكمة (المستر محمد عبده مفتي الديار المصرية) حكم ٦/٢/ ١٩٠٤.

في هذه الأثناء كان النصحاء – مبعوثين ومتطوعين – يراوضون الإمام على ما روى الشيخ رضا حيث قال:

(ومن هؤلاء الناصحين العارفين أو أمثلهم خليل باشا حمادة الشهير الذي تولى الأوقاف العامة بمصر ثم وزارة الأوقاف في الأستانة.

خرجت معه (الإمام) ليلة من الأزهر بعد العشاء كعادتنا في ليالي دروسه فقال لي إن حماده باشا عندنا فاذهب بنا إلى عين شمس نتعشى معه. فذهبنا. فكان جل حديث الباشا معه فيما جاء من الإسكندرية لأجله هو إقناعه يترك الخديو يتصرف في الأوقاف كما يشاء لأجل أن يتركه ينصرف في إصلاح الأزهر كما يشاء.. وكان يقول له على المائدة مرارا (يا سيدي الأستاذ أبوس إيدك. والله إن إطلاق الحرية لك في إصلاح الأزهر خير لك وللإسلام والمسلمين في الدنيا والآخرة من كل ما توفره من مال الأوقاف لديوانها..). قال الأستاذ الإمام – عفا الله عنه – أنا أعلم هذا. ولكن وجداني ومراقبتي لله تعالى لا تمكنني من إقرار ما لا يبيحه الشرع. والباطل لا يكون وسيلة إلى الحق).

في أواخر ذلك العام دعت حكومة السودان الإمام لزيارته فزاره في النصف الثاني من يناير سنة ١٩٠٥ وهو الذي يرشح له قضاة وأساتذة في كلية جوردن وبهذا سعد السودان بأعظم العلماء: محمد الخضري وعبد الوهاب النجار وقضاة القضاة محمد هرون ومحمد شاكر ومحمد مصطفى المراغي.

***

عاد الأستاذ الإمام في شهر فبراير فلم يكد يصل حتى نفث الخديو حقده جهرة في شكل طلب إلى مجل إدارة الأزهر بمنح كسوة التشريفة للشيخ راشد إمام حاشيته. ورفض المجلس لأن القانون يشترط أن تمنح لأكابر العلماء...

وإذا بصحيفة الخديو (المؤيد) تبدأ الحملة على إصلاح الأزهر – وهي المعروفة بصلتها بالخديو.

ففي ٥ المحرم سنة ١٣٢٣ (١٠ مارس ١٩٠٥) تحت عنوان (خطاب مفتوح إلى سمو مولانا الخديو المعظم) نشرت خطابا وقعه الشيخ محمد الأحمدي الظواهري يقول فيه (وأرجو ويرجو المسلمون أن تشملوا هذه المدارس هذه المدارس (معاهد الأزهر) بعنايتكم وأن تقطعوا منها جراثيم الفساد والانحطاط).

وفي ٧ المحرم يعقب خليل مطران في صحيفة الجوائب المرية بحديث أجراه مع الشيخ الشربيني سأله فيه (ماذا يرى مولانا فيما قام اليوم يلتمسه الشيخ الظواهري؟) مما يدل على أن الجوائب تلاحق المؤامرة. وأجاب الشيخ الشربيني (الظواهري إنما نطق بلسان كل محب للأزهر).

وفي ٩ المحرم أعاد المؤيد نشر حديث الشيخ الشربيني بتمامه مع الترويج له مما يدل على أن الخطاب المفتوح والحديث التالي له حلقتان في سلسلة.

وفي ١٠ المحرم استقال شيخ الأزهر الشيخ الببلاوي.

وفي ١٣ المحرم عين الشيخ صاحب الحديث شيخا للأزهر.

أما صاحب الخطاب المفتوح (الشيخ الظواهري) فسيعين شيخا عقب استقالة المراغي – من جراء إصلاح الأزهر سنة ١٩٢٩ ويفصل الظواهري تلاميذ محمد عبده والمراغي ما سنرى بعد.

وفي ١٧ المحرم سنة ١٣٢٣ (٢٢ مارس سنة ١٩٠٥) أقيمت حفلة إلباس كسورة التشريفة الكبرى لشيخ الأزهر الجديد وحضرها مفتي الديار وخطب فيها الخديو فأنب شيخ الأزهر لرفض المجلس منح الكسوة لإمام حاشيته.. ثم أضاف "أن أول شيء يطلبه هو أن يكون الهدوء سائدا في الأزهر وألا ينشغل علماؤه إلا بتلقي العلوم البعيدة عن الزيغ وشغب الأفكار" وأضاف "إن في المجلس عضوا ينوي أن يستقيل". وأدرك الحضور قصده. وفي الإمام حدة أثبتها على نفسه في لقائه لوزير الحربية الإنجليزي سنة ١٨٨٤ لدى مواجهة السلاطة من أصحاب

السلاطة. لكن العواصف لا تزلزل جنانه أو تزل لسانه. هناك أفحم وزير الحربية البريطانية في مكتبه، وهنا سنراه يساقط من قمة المعرفة على الخديو، في قصره، درسا في القانون، دون أن يسقط حقا للأزهر.

قال: (إن للمجلس قانونا أصدره الخديو فإذا رأى أن يكون منح كساوي التشريف بناء على إرادته الشخصية فليصدر قانونا جديدا بما يراه) فاحمار وجه الخديو ووقف لينهي المجلس.

ولم تكن المسألة تتعلق بالدين ليتعين على الإمام أن يجبه الخديو برده بل هي مسألة حق لمجلس الأزهر، قد يجزئ فيها مذكرة تكتب في الغداة، لكن دفع العدوان على الأزهر ديدن الإمام. ومن الحزب مبادرته في موقعه كيلا تكون للخديو الكلمة الأخيرة.

ولئن جبن الخديو مرتين في هذا الموقف الواحد حين لم يذكر الأسماء وحين أنهى الجلسة، إن الأستاذ الإمام شجع مرتين، إذ جبهه برده ولم يستقل بناء على تلويحه، فلو قدم الاستقالة من فوره لأشبهت أن تكون بناء على أمر الخديو وأن تكون إقالة وإذن لسجلت للخديو سلطة على مجلس الأزهر.

***

رجع الإمام إلى داره منتصرا لكنه استشار رجاله فأشار سعد وفتحي وقاسم ومحمد راسم عليه بالاستقالة حتى لا يتجه بطش الخديو إلى الأزهر ذاته، فبعث الإمام بها إلى شيخ الأزهر رئيس مجلس الإدارة في ٢٠ محرم سنة ١٣٢٣، ٢٥ مارس سنة ١٩٠٥ واستقال عبد الكريم سلمان متضامنا معه.

***

روى الشيخ رشيد رضا أنه حين قدم إلى مصر في آخر سنة ١٣١٥ (١٨٩٧) لخص له الأستاذ الإمام واقع الحال أيامئذ:

٦- أن إصلاح الأزهر إصلاح لأهل الإسلام وخدمة للإسلام.

٧- أن عقبة كؤودا تقف في وجه الإصلاح هي عقلية المشايخ.

٨- أن الإصلاح طويل الأمد لو شهده في حياته لمات سعيدا.

٩- أنه حاول أن يبدأ بعظائم الأمور وأشاروا عليه بالتدريج.

١٠- أنه لا فائدة له من العمل في الحكومة إلا تمكينه من إصلاح الأزهر وأنه لم يحصل إصلاح يذكر حتى سنة ١٣١٥ (١٨٩٧).

وروى أن قرار إنشاء مجلس إدارة الأزهر نص على أنه لا يجوز لمجلس الأزهر ولا لشيخ الأزهر عزل محمد عبده أو عبد الكريم سلمان.

وروى قول الإمام له ذات يوم،: إما أن يعمر الأزهر أو يتم خرابه – فإذا يئست من إصلاحه تركت الحكومة واخترت أفرادا أريبهم لينهضوا بالدعوة.

وروى أنه لما استقال عزم على بناء دار في جواره لذلك الغرض لولا أن عاجلته منيته.

قولا إن لسعد كلمة مشهورة قالها له من قبل "سيفسدك القوم قبل أن تصلحهم" ولم يكن أحد ليفسد الإمام وحياته جهاد لمقاومة الفساد. وإنما كان للإمام – في مواجهة السلاطين – مكان تدخره له السماء في جوار أئمة الفقه الأربعة: مات أبو حنيفة – وهو يصلي – في سجن أبي جعفر المنصور. وخلع كتف مالك وال هـ. ولقي تسعة من زملاء الشافعي مصارعهم بين يدي "الرشيد" ويديه، ولم ينج إلا بحسن دفاعه. وحمل ابن حنبل في أصفاده إلى مفر المأمون وهو حامل سيفه ليقتله فمات حامل السيف وحيي إمام المسلمين.

والأذى في سبيل الله هو الذي يرفع العظماء إلى مقام الشهداء.

***

فلنراجع – بعد تقادم الزمان – قول الإمام إن صاحب العرش لا يملك الخروج على قانون أصدره، إلا بناء على قانون جديد، فذلك هو المبدأ الدستوري الذي يحاول الطغاة دائما أن يتجاوزوه.

ولنراجع حديث الشيخ الشربيني (في ٧ المحرم سنة ١٣٢٣، ١٢٣ مارس سنة ١٩٠٥) حيث قوله لخليل مطران:

١- (إن الخدمة التي قام بها الأزهر للدين ولا يزال يقول بها هي حفظ الدين لا غير، وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهر به ولا ينبغي له).

٢- (إن الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني فيه ويحول المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفئ نوره في هذا البلد وغيره).

(وإني أسمع من سنوات بشيء يسمونه حركة في الأزهر وإصلاح الأزهر ولكني لم أر لهذه الحركة وهذا الإصلاح من نتيجة سوى انتشار الفوضى في ربوعه).

وترى – بادي الرأي – أنه لو لم يكن للأزهر علاقة "بعلوم الأعصر" لبخع نفسه. وأن دعوى الشيخ عن محاربة الدين وانتشار الفوضى بدراسة الفلسفة والأدب تظهرنا على علاقته بالدنيا: أنه لا يموت فيها ولا يحيا.

***

قدم الشيخ مصطفى عبد الرازق فيما بعد صورة لما حدث بأسلوبه الأدبي المبدع في مقال مؤرخ ٥ ذي القعدة سنة ١٣٢٣ (١٩٠٥) فقال:

(وبمناسبة استقالة الشيخ المفتي قص علينا اليوم في الدرس الشيخ م. ر – قصة تتعلق باستقالة من مجلس إدارة الأزهر قال:

"لما حمل حموده بك عبده أخو الشيخ الاستقالة إلى الشيخ الشربيني في الأزهر قال: ماذا جرى حتى يستقيل الشيخ المفتي؟ لقد كنت مغتبطا بمعونته فيما نهضت به. هل من سبيل لصرفه عن عزمه؟

قال الرسول: إنه مصمم على تنفيذ نيته. وهو على ذلك قد كلفني أن أخبر فضيلتكم أنه رهن إشارتكم في كل ما تندبونه له.. تأوه أستاذ الشيوخ وقال:

لا حول ولا قوة إلا بالله وظهر عليه التأثر.

قال الشيخ م. ر. في الحقيقة إن الشيخ الشربيني لم ينتبه للسبب الحقيقي لاستقالة المفتي من الأزهر وهو أن التعريض القاسي الذي ورد في خطبة الاحتفال بإلباس الشيخ الشربيني الخلعة يقضي عليه بالاستقالة..

قال الشيخ م. ر. (كان المفتي مستمعا للخطبة منصتا: أما الشيخ الشربيني فلم يلق إليها بالا. كنت قريبا منه تزاحم هتافه بالاستغفار رنات صوت الأمير في أذني. وكان غاضا من بصره حتى لقد نبهته عندما نهض الأمير مؤذنا بالانصراف. فجعل يعتمد عليّ بيده مكررا ذكر الله حتى خرجنا من قصر الإمارة).

من حق الشيخ الشربيني أن يذكر كفقيه شافعي ذي كفاية، ومن الحق أن نذكر أن المشيخة والإدارة كانتا فوق طاقاته [١٠٢] ولهذا غض بصره واستخفى في طلب المغفرة ولم يلق باله إلى ما أصابه والأزهر معه!

وكان محمد عبده صادقا في تعهده بأداء الخدمة العامة لله والوطن فقد رأس بعد أسبوعين لجنة الإعداد لمدرسة القضاء الشرعي.

ولم يك بد من اشتعال الفتنة في الأزهر واستقالة الشيخ الشربيني وعودة الشيخ حسونة عقب وفاة الإمام.

لكل أجل كتاب.

ويضع مصطفى عبد الرازوق تاريخ ٣/ ٥/ ١٩٠٥ لنبذة جاء فيها:

(الشيخ المفتي مريض. ويظهر أن داءه لسوء حظ المسلمين عضال أتيته أعودة في داره بعين شمس ضحوة اليوم وأذن لي فدخلت إليه وهو في سريره شاحب اللون تزاحم البشاشة الفطرية في وجهه لدغة الألم. وهو على ذلك حلو الحديث حاضر البديهة...)

أجل: لقد أحس الإمام بالمرض في إبان رحلته إلى السودان ولكنه كان يخفي ألمه ليعمل، حتى أقعده، وذاع خبره وجاء الأمراء والوزراء والكبراء كل بطبيبه. وكان أكثر الناس ترددا على الدار الأمير حسين كامل. وعرف الأطباء أنه السرطان. ونشرت الصحف الأنباء فشغلت مصر وسورية والسودان.

أما الإمام فكان يسأل عن طبع ملازم التفسير ومرتبات الضعفاء والقواعد من النساء هل تصلهم؟

وواتاه الشعر الذي قال إنه لا ينظمه إلا في أحد المحبسين، حبس السلطان أو حبس المرض، فنظم أبياتا قليلة يودع فيها دنيا الناس ويعلن خوفه على الإسلام [١٠٣].

---

(١٠٢) ولو قدر على شئون مشيخة الإسلام. لتذكر موقف عز الدين بن عبد السلام – وكان شافعيا مثله – عندما عرضوا عليه أن ينكسر للسلطان ويقبل يده لتعاد إليه مناصب فأجاب (يا قوم أنتم في واد وأنا في واد والله ما أرضى أن يقبل يدي).

(١٠٣) يهمنا من هنا بيتان:

وأجمعوا أن يسافر للعلاج في أوربا وانتقل إلى دار راسم بك بالإسكندرية في انتظار الباخرة فجاءها اليوم البئيس ثانية مذ ضربها الإنجليز في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ – وضربها الموت وفي الحمام فيها الإمام في ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ – ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣.

***

نقل الجثمان إلى القاهرة بقطار خاص – كهيئة رؤساء الدول – ومشت مصر كلها تشيع الإمام الذي وهبتها إياه السماء بعد أحد عشر قرنا من وفاة الإمام الاول في جوار جامع عمرو: محمد بن إدريس الشافعي سنة ٢٠٤.

وتوفى الوزراء والعلماء، والخلصاء والخصماء، ورجال القضاء ومجلس شورى القوانين والأجانب والمصريون – وكان فذا في التاريخ أن يمشي رجال القضاء كهيئتهم في الجلسات بأرديتهم الرسمية وأوشحتهم على صدورهم، وفي صدارتهم قاسم أمين وحسن عاصم وعلي فخري ورشدي وثروت وحشمت وراسم ومن خلفهم رجال المحاماة بأرديتهم السوداء، كأنما هو مجلس رباني للقضاء، يودع الشيخ الرئيس في رحلته الأخيرة.

أما رجال الدفاع فجاءوا يشيعون "المحامي الأول" عن مصر في عهد الاحتلال، والذي نظم "المقاومة" في شكلها المشروع طوال ربع قرن، يتقدمهم تلاميذه منهم كما سيتقدمون الأمة في الثورة الكبرى بعد أعوام ثلاث عشرة.

ثم كان ما هو أروع لأنه أورع! حينما وصلت الجنازة إلى الأزهر فتعالى من مآذنه التي تكبر الله من ألف عام، ومن كل مآذن القاهرة ذات الألف مسجد، دفعة واحدة: الله أكبر: الله أكبر.

وإنما تعلن الأصوات والأصداء تشييع السماء! وهذان أمران لم يجتمعا إلا له.

كان الإمام قد وصى بعدم إقامة ليالي المأتم فلم تقم.

ولست أبالي أن يقال محمد أبل أم اكتظت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم

وكان من عدل السماء أن يظلم الخديو نفسه فيتخلف عاما عن موكب العظمة. فلم يندب أحدا للحضور في جنازة رسمية لرجل طالما لاذ به فأنقذه.

وادّارك الأمير الصغير في سقوطه الكبير فقال لأحمد شفيق باشا وكان من حاشيته:

(يظهر والله أعلم أنكم أردتم بالسير وراء نعشه المجاملة بعد الموت وهو على ما تعهدون عدو الله وعدو النبي وعدو الدين وعدو العلماء وعدو المسلمين بل وعدو نفسه. فلم المجاملة).

obeikandl.com

وإنما أبعدته السماء من جنازة الإمام حتى لا يشهد المنافق مشهدا على أبواب الجنة، ولتجري عليه وعلى تلاميذ محمد عبده من سننها قانونا من قوانين الطبيعة [لكل فعل رد فعل مضاد له في الاتجاه ومساو له في المقداري ولينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما. فستخلعه إنجلترا سنة ١٩١٤ وتقيم مقامه تلميذ محمد عبده – حسين رشدي.

وفي سنة ١٩١٩ يجبه أكبر تلاميذه – سعد زغلول – إنجلترا بالثورة العظمى، وهي منتصرة، فيفتح عليها أبواب الثورات التي زلزلت ثم دمرت إمبراطوريتها.

وفي سنة ١٩٢٢ يظفر لمصر بالاستقلال أصغر وكلاء محمد عبده في الجمعية الخيرية عبد الخالق ثروت.

obeikandl.com